الفصل الأول

عصر ابن الأثير

١ ـ الحالة السياسية

عاش ضياء الدين بن الأثير فى النصف الثانى من القرن السادس والثلث الأول من القرن السابع تظله دولة بنى أيوب فى مصر والشام والجزيرة .

وشهد هذا العصر مرحلة الانتقال بين الدولة العباسية الكبرى ، التى تمثل مجد العرب والمسلمين طوال مانيف على خمسة قرون ، وعصر التفكك والانحلال السياسى على أيدى المغول والصليبيين وتفتت الدولة العربية إلى دويلات صغرى تحكمها جماعات متفرقة مذهبـًا وجنسـًا ، ثم انتهى الأمر بالاحتلال العثمانى .

وإن كانت دولة الأيوبيين تمثل انتفاضة واعية للعرب والمسلمين ضد تغلغل المد الصليبى والأوربى فى البلاد العربية الإسلامية .

ولد ضياء الدين (سنة ٥٤٨ هـ) بجزيرة ابن عمر شمالى الموصل . على الشاطىء الغربى لدجلة وكان العراق لا يزال مركزاً للخلافة الإسلامية العباسية ، ممثلة السلطة الدينية ؛ وسلاطين السلاجقة ، أو دولة السلاجقة بالعراق ممثلة السلطة الزمنية ، وقد شهد هذا العصر سلسلة من النزاع بين القوتين ، أدت إلى قيام كثير من الفتن والحروب .

وشجع الخلفاء ـ وهم فى حال من الضعف ـ تنازع السلاجقة فيما بينهم واقتتالهم على الأسلاب من أقاليم الدولة الإسلامية ، والتف حول القوتين : الخلافة والسلاجقة ، جماعات من الأمراء والقادة والمغامرين ، لعبوا بمقدرات الناس وتطور الأحداث فى هذه المنطقة ، فأخذوا بأيديهم أزمة الأمور يوجهونها تبعـًا لأهوائهم

وأطماعهم . وكان من هؤلاء عماد الدين زنكى صاحب الموصل، وأبناؤه الذين نشأ فى كنفهم صلاح الدين الأيوبى.

ودارت بين عماد الدين زنكى صاحب الموصل وبين الصليبيين معارك دامية انتهت بسقوط إمارة « الرها » إحدى الإمارات الصليبية القوية التى أسسوها بالشرق العربى . ثم واصل الحملة والكفاح من بعده أبناؤه نور الدين محمود وخلفاؤه ، وصلاح الدين وخلفاؤه .

وشهد هذا العصر كذلك زوال أكبر دولة للشيعة فى مصر هى دولة الفاطميين التى انتهت فى مصر فى نهاية النصف الأول من القرن السادس ، وكان ذلك نهاية للصراع بين قوتين كبيرتين قوة دولة العباسيين السنية والفاطميين الشيعية طوال قرنين من الزمان . وساعد على زوال هذه الدولة ما أصابها داخلياً من ضعف وفتور ، وتخلخل فى صورة مجموعة من ضروب النزاع والصراع بين القوى والعناصر المختلفة التى تقوم عليها الدولة . وكان لقيام قوة السلاجقة الحربية فى العراق والشام أثرها المباشر فى سقوطها على يد شيركوه قائد نور الدين محمود وصلاح الدين ابن أخيه وخليفته .

وقد حاول بعض خلفاء العباسيين إعادة السيطرة إلى الخلافة فى بغداد عن طريق الانحياز إلى بعض سلاطين السلاجقة وتأليبهم على بعض ، أو استغلال النزاع بينهم لاستعادة السلطة «. فقد قاتل الخليفة المقتفى بالله (٥٣٠ — ٥٥٥ هـ) السلطانين السلجوقيين محمد شاه وأرسلان شاه، وتمكن الخليفة من التغلب على السلطان محمد عند حصاره بغداد ، وساعد أهل بغداد خليفتهم وشاركوه فى الدفاع عن بلدهم مساعدة فعالة . كذلك لعب الوزير عون الدين بن هبيرة دوراً هاماً فى هذا الحصار .

ولكن النزاع ظل قائماً بين السلاجقة والخلفاء العباسيين ، ولم يدع سلاطين السلاجقة فرصة ولا وسيلة لإضعاف سلطاتهم ورفع أيديهم إلا انتهزوها ، وأخذوا

بها، شهروا ضدهم السلاح ، وأشعلوا الفتن . ودبروا المؤامرات لقتلهم ، فسلطوا الإسماعيلية ، فقتلوا الخليفة العباسى الراشد بتدبير منهم سنة ٥٣٢ هـ[١] .

ومع هذا الصراع الدامى الذى كان دائراً بين السلاجقة والخلفاء ، وبالرغم مما كان بينهم من العداء فلم يستطع السلاجقة نسيان المكانة الدينية للعباسيين ولا مقاومتها ،وكانوا هم بالضرورة حكاماً وسلاطين يعتنقون مذهب أهل السنة ويتحمسون له ، ويروى أن السلطان محمود السلجوقى طلب أن يحمل فى مرضه إلى قصر الخليفة — عدوه السياسى — حتى يدعو له بالشفاء[٢] .

وأصل هؤلاء السلاجقة من الأتراك الذين كانوا يسكنون فى الأصل حول بحر قزوين ، ومن جملة القبائل الأندوأوربية المشهورة بحب القتال والفروسية والتى بدأ نشاطها يهدد العالم العربى طوال القرنين الرابع والخامس إلى أن استولوا على السلطة فى القرن الخامس وأقاموا فى العالم العربى والإسلامى نظام الإقطاع الحربى لأول مرة فى تاريخه .

ويقوم هذا النظام على أساس قيام كل سلطنة من سلطناتهم الثلاث على مجموعة من الإمارات أو الإقطاعيات التى يحكمها قائد أو أمير جيش بحيث يكون مسئولاً عن تكوين فرقة دائمة ومتأهبة للقتال وينخذ له مركزاً فى قلعة حصينة من قلاع العصور الوسطى التى بدأت تظهر فى هذا العصر بكثرة فى العالم الإسلامى ، ويتكون من مجموعة هذه الفرق قوة ضاربة سريعة الحركة تحت إمرة السلطان .

وقد ساعد هذا النظام السلاجقة وحكامهم الأقوياء كثيراً فى تنفيذ مآربهم العسكرية وإخضاعهم لأعدائهم ، كما ساعد أيضاً على الوقوف أمام هجمات الصليبيين القوية المركزة طوال القرن السادس .

وكانت دولة السلاجقة منقسمة إلى ثلاث سلطنات يسيطر على كل منها سلطان قوى . وهى : سلطنة المشرق، وتسيطر على خراسان وبعض بلاد المشرق

---

(١) أخبار الدولة السلجوقية ص ٩٨ .
(٢) أخبار الدولة السلجوقية ص ٩٨ .

فى فارس ، وسلطنة العراق وتسيطر على العراق والجزيرة وبعض أجزاء من شمال الشام اقتطعوها من الدولة الفاطمية ، ثم سلطنة الروم ، وكانت تسيطر على الجزء الشمالى الغربى من الجزيرة الفراتية وبعض أجزاء من شمال الشام وشبه جزيرة آسيا الصغرى .

واشتبك سلاطين السلاجقة فى المشرق فى صراع مع الدولة الخوارزمية فى أقصى بلاد فارس على السيادة والسيطرة على الخلافة العباسية . واستنجد بهم الخليفة العباسى فهزموا السلطان السلجوقى طغرل بك سنة ٥٢٠ هـ ولكنهم لم يتمكنوا من السيطرة على العراق أو دخول بغداد .

وبلغت دولة السلاجقة أوج قوتها فى عصر ملكشاه أكبر سلاطينهم وأعظمهم وبدأت فى الانحلال والضعف بعد موته ومقتل وزيره الجليل نظام الملك .

وقد خاض سلاجقة العراق والروم كثيراً من المعارك ضد الفاطميين والصليبيين ، بل بينهم أنفسهم . وكانت الدولة الفاطمية تلفظ آخر أنفاسها بينما قوة الصليبيين كانت لا تزال فى عنفوانها وأفواجهم الهادرة ما زالت تترى عبر آسيا الصغرى والبحر المتوسط طامعة فى الشرق وحضارته وخيراته .

وفى منتصف القرن السادس الهجرى ورث صلاح الدين السلطة عن أبناء زنكى والسلاجقة ، وسيطر على الشام ومصر والجزيرة العربية واليمن وشمال العراق وكافح الصليبيين كفاحاً باسلاً حتى أمكن له أن يقضى على أقوى إماراتهم فى المشرق وهى إمارة بيت المقدس ، كما استعاد القدس بعد معركة حطين الفاصلة ، وذلك بفضل محاولاته الناجحة لجمع الكلمة العربية وتوحيد الصف الإسلامى فى مواجهة الصليبيين وحملاتهم المتعددة .

وبعد وفاة صلاح الدين واصل خلفاؤه : أبناؤه وأخوه العادل وأبناؤه من بعده ، رسالته فى مقاومة الصليبيين والقضاء على نفوذهم واستئصال مراكزهم التى أقاموها على الشاطئ السورى ، وقد اقتسم أبناء صلاح الدين وإخوته الملك من بعده ؛ فتولى ابنه الأفضل على الشام وجعل قاعدته دمشق ، وابنه العزيز عثمان على مصر ،

وابنه الظاهر على حلب وشمال الشام ، وأخوه العادل على المشرق ثم ما لبث أن استولى على الشام ومصر .

ونشب النزاع بين أبناء صلاح الدين وشارك أخوه العادل فى تطور هذا النزاع بنصره العزيز عثمان على أخيه الأفضل صاحب دمشق حتى استولى على ملكه ومن ثم عاد فتولى السلطة فى مصر وأبقى على حلب صاحبها ، ومن ثم انتقلت السلطة من أيدى أبناء صلاح الدين إلى العادل وأبنائه .

وقد وزر ضياء الدين بن الأثير الجزرى للملك الأفضل بن صلاح الدين زمنًا أيام توليه السلطة بدمشق ، وشارك فى الأحداث التى دارت بينه وبين إخوته وعمه الأفضل إلى أن أقصى عن السلطة .

٢ ـ الحياة الاجتماعية

وتأثرت الحياة الاجتماعية بالحالة السياسية فقد طرأ نظام الإقطاع الحربى الذى أدخله السلاجقة إلى العالم الإسلامى ، والذى شابه هذا النظام فى أوربا فى العصور الوسطى . وقيل إن الذى أشار به هو الوزير نظام الملك . فقد أشار على سلطانه أن يقطع كل أمير وقائد جند فى جيشه إقطاعًا من ملكه العريض بحيث يتكفل كل منهم بما يتصل بإقطاعه من النواحى الإدارية والمالية والعسكرية ، على أن يتبع السلطان مباشرة ويقوم بأداء ما عليه من المال ، ويكون هو وجنده تحت إمرته كلما دعا الداعى أو كلفه السلطان بمهمة .

وقد أدى هذا النظام إلى قيام تنظيم عسكرى دقيق قوى يخرج فرسانًا ومقاتلين أكفياء ممتازين يمكن الاعتماد عليهم فى المعارك التى يخوضها السلاطين للحفاظ على أملاكهم أو لتحقيق مآربهم وأطماعهم أو صد قوى العدوان على العالم الإسلامى واستطاعت هذه القوة المدربة أن تقف أمام القوى العسكرية لفرسان أوربا الصليبيين طوال الحروب الصليبية التى استمرت أكثر من قرنين من الزمان .

وعلى ما كان لهذا النظام من محاسنه العسكرية ، فقد كانت له مساوئه الاجتماعية إذ أدى إلى تقسيم الناس إلى فئتين أو طبقتين متناقضتين إحداهما طبقة الأمراء وأصحاب الإقطاع ويلحق بهم التجار الكبار والأثرياء من المقربين للأمراء والسلاطين . والطبقة الدنيا ، طبقة الشعب الفقير التى لا تملك شيئاً ، وتتكون من الكادحين من فلاحى الأرض والأجراء وأصحاب المهن الصغيرة ، وعليهم جميعاً أن يسخروا أنفسهم لخدمة الطبقة الأولى وعمل السلاح وإعداد المؤن للجيش المحارب .

وكانت الأرض ومن عليها ملكاً لصاحب الإقطاع . لهذا كان يتصرف فى إقطاعه من أرض وبشر وحيوان ونبات كما يشاء ليس عليه رقيب ولا يحده قانون ولا يقف فى وجهه إلا السلطان ، وقد يراعى العلماء والقضاء إذا كان ممن يرعون للشرع ذمة ، وكثيراً ما كان يميل الأمراء مع هوى السلطان ويتبعهم العلماء والقضاة .

ولكن العلماء والفقهاء والقضاة وقفوا أحياناً فى وجه الطغيان واضطروا الحكام إلى مراعاة العدل وتحكيم الشريعة الإسلامية ، وإن حوروا فى فتواهم وأحكامهم حتى تطابق أو تساير رغبات الحكام ، اللهم إلا من قل منهم ممن وقف أمام تلك الرغبات وصمد للاضطهاد والعسف .

وكان طبيعياً والحال كذلك أن يسوء توزيع الثروة ، ويضطرب ميزان الاعتدال ويختل توازن الدخل ، فيتعرض الناس لهزات اقتصادية مميتة ، ومجاعات خانقة ومهلكة تجتاح الناس فى موجات متتالية فتكتسح منهم الآلاف اكتساحاً .

كذلك كان طبيعياً أن ينتج عن هذا الاضطراب الاقتصادى وعدم توازن الدخول اتجاه كثير من الناس إلى ضروب وأفانين من الكسب غير المشروع ولا الطبيعى ، أى ليس عن طريق الزراعة أو التجارة أو الأعمال المهنية الأخرى ، بل عن طرق من الاحتيال والنصب والخداع والتملق والسؤال والتفنن فيه لاكتساب المال من « حيث وليس » كما يقولون .

ويبدو السلطان والأمير صاحب الإقطاع دائمًا فى صورة المتفضل صاحب الحق والفضل الجواد الخير المتصدق حين يجود على الناس بالأعطيات والمال والهدايا والكساء مما يزيد عن حاجته ، أو ما يقدم لهم من الغذاء فى المواسم والأعياد تقربًا إلى الله ربه ، ولكى يلهج له بالثناء ويدعى له بالخير ودوام السعادة ، وتعتبر هذه المنن وتعتقد المكرمات والمآثر .

فالسلطان والأمير هما المالكان لكل شىء ، ولا يملك الناس شيئًا فهذا حقهما والحرمان والجوع والعمل سخرة حق عامة الناس .

وإذا كانت الطبقة العليا قد جعلت لنفسها حق الامتلاك لكل شىء وحق الاستيلاء على كل شىء بالمصادرة ، فقد فرضت على نفسها واجب الدفاع عن الأرض وحمايتها من العدو والدفاع عن الشريعة والدين وكفالة الاستقرار والأمن ؛ ولكن هذه الصلة بين الطبقتين تفتقر إلى عناصر أساسية تجمع بين المحكوم والحاكم وتكفل لهما الترابط والتكافل والتعاضد .

ولم يكن غريبًا أن يستغل الدين والعقائد لخدمة أغراض الحاكمين وأصحاب المصالح على حساب عامة الناس . كما لم يكن غريبًا أيضًا أن يتخذ الدين فى صورة الصلاح والتقوى وسيلة من وسائل الرزق . فقد ظهرت جماعات لم يكن لها عمل فى الحياة سوى الصلاح والتقوى ، وكان السلطان أو الأمير يتقرب إلى الناس بتقريب هؤلاء إليه وإيوائهم والإنفاق عليهم ، وهكذا ظهرت بدعة التكايا ورباطات الصوفية وكانت تضم جماعات وأشتاتًا من الخلق من مختلف بلاد العالم الإسلامى يأكلون ويشربون ويدعون للأسياد بالخير والبركة إذا ما استمر المدد ، ويدعون عليهم بالويل والثبور وعظائم الأمور والنكال فى الدنيا والآخرة ، إذا انقطعت الرواتب أو أسيئت المعاملة .

وكان من الأمور المعهودة أن يقام فى كل مدينة كبيرة من مدن العالم الإسلامى رباط أو ربط للصوفية إلى جانب المسجد الجامع أو المساجد الكبيرة ، تكون بمنزلة الخان أو النزل ينزل به أولئك الصوفية والزاهدون وطلاب العلم الذين يطوفون بالعالم

الإسلامى شرقًا وغربًا ، ويقضون حياتهم هكذا فى التنقل والعيش الرضى الهادئ الهانئ .

وقد نشأ نظام الرباط أصلا للجهاد فى الثغور ثم تحول إلى تكيَّة للمأكل والمشرب وحياة البطالة .

وربما نشأ عن هذا النظام بعض الفائدة فى نشر العلم ، وحفظ القرآن ، وتهيئة الجو الهادئ للدارسين وحفاظ الحديث ، ولكنه إلى جانب هذا أساء إلى المجتمع بما أشاع فى صفوفه من روح التواكل والسلبية التى كانت طابع الشعب أو المحكومين ولم يقم الشعب بأدوار إيجابية فعالة فى الجهاد الحقيقى الفعال فى الجيش العامل ، إنما كان أكثر الفرسان والمقاتلة من المدربين أبناء الطبقات الحاكمة أو من الجند المرتزقة من فتيان الترك والمماليك .

فكان الجيش جيشًا محترفًا يعمل بالأجر ويحرص السلاطين على انتظام رواتبه حتى لا يثور . ولا يعمل بدوافع وطنية بحتة للدفاع عن الأرض ، وإن كان هذا لا يعنى أن الشعب لم يصل الحرب ولم يقتحمها ، بل إنه مع ذلك شارك بعرقه وكفاحه فى سبيل إمداد الجيوش وتهيئة الجو المناسب والعون المناسب للقتال ؛ فكانت تقف وراء الجيوش المقاتلة جيوش أخرى من العاملين فى السلاح والمؤونة والنقل وما إلى ذلك .

وربما كانت الحروب الصليبية أول تجربة عنيفة يواجهها نظام الإقطاع الحربى أو العسكرى الذى أوجده نظام الملك ، والذى أدى إلى محاولة السلاطين مراعاة المحكومين والاعتماد عليهم ، وقد تنبه صلاح الدين وبعض الحكام الآخرين إلى ضرورة الاعتماد على الشعب فى حركات المقاومة والدفاع والبناء القوى للدولة .

وقد وقف شعب الإسكندرية مع صلاح الدين فى مقاومة جند ملك بيت المقدس مرة ومرة أخرى فى مقاومة الغزاة من الصليبيين الذين اتخذوا من قبرص قاعدة للحملة على الإسكندرية فى أيامه .

وكان المجتمع العربى فى عصر ضياء الدين بن الأثير فى القرنين السادس والسابع يتكون من أمشاج متعددة من عناصر وجنسيات متباينة الطباع والعادات والأخلاق والديانات وإن كان السواد الأعظم من العرب يليهم الأكراد والأتراك والأقباط فى مصر والأرمن وغيرهم من الجماعات الأوربية فى سوريا . ولكل عنصر من هذه العناصر تراثها الفكرى والاجتماعى والدينى ، وأدى اختلاطها إلى ظهور آثار جديدة فى الفكر العربى والإسلامى وإلى تغير فى العادات والتقاليد ووفود كثير من « البدع » الطارئة .

وكان للعنصرين الكردى والتركى أثرهما الفعال فى الحياة الاجتماعية ، وكان الأكراد بحكم سيطرتهم واستيلائهم على السلطة ، وإن كانوا قد حاولوا الاندماج فى العنصر العربى ، واصطناع أنساب عربية كما فعل الأيوبيون ، وامتازوا بالحماس الدينى ، والشراسة والصلابة فى القتال مما جعل منهم محاربين ممتازين ، وكثر الأتراك غلماناً يجلبون من أسواق النخاسة المنتشرة آنذاك فى أطراف العالم الإسلامى ومدنه الكبرى وكانوا يمتازون بجمال الصورة وحسن البنية وقوة الأجساد والاستعداد الحربى الممتاز مما جعل أمراء الأكراد والعرب يفضلونهم فى إنشاء قوة خاصة بهم تكون حرساً خاصاً أو قوة مقاتلة فى الجيوش ، وأثبت كثير منهم كفاءة عالية فى الحروب والفنون العسكرية .

وتزايد الأتراك فى المجتمع العربى تزايداً كبيراً مما سبب كثيراً من المتاعب الصعوبة خضوعهم للقوانين والتقاليد ولشراستهم ، وميلهم إلى السلب والنهب . على أنهم كانوا إلى جانب ذلك موضوعاً طريفاً للشعر لجمالهم ، فكثيراً ما نجد السادة بل العلماء يقتنون فتيان الأتراك ويتغزل فيهم الشعراء والكتاب .

كذلك كثرت النساء التركيات فى بيوت السادة والأثرياء ، واتخذوا منهن زوجات وحظايا وبلغت بعضهن مكانات مرموقة فى الدولة كشجرة الدر واشتهرت بعضهن فى الفن والعلم والأدب.

وتراجع العنصر العربى فى هذا العصر عن مكان السيادة والسيطرة ، وإن ظلت

بعض القبائل العربية القوية فى الشام والجزيرة وصعيدمصر تحاول إثبات وجودها بزعامة بعض رجالها الأقوياء. واحتفظت بعضها بتقاليدها وعاداتها العربية الأصيلة، واندمج بعضها الآخر اندماجاً كاملا فى أهل البلاد التى حلوا بها واحترفوا الزراعة والصناعة والتجارة .

ولم يذكر من حركات القبائل القوية فى هذا العصر سوى حركة أحد أمراء العرب ويدعى دبيس بن صدقة سنة ٥١٥هـ الذى حاول اغتصاب السلطة من خليفة بغداد، ولكنه فشل فى فتح بغداد بعد أن جاءت نجدات قوية من الشمال والشرق لمعاونته . كذلك ثارت بعض القبائل فى صعيد مصر فى أواخر الحكم الفاطمى ، وأوائل حكم صلاح الدين وأمكنه قمعهم .

وكانت بعض العناصر الفارسية قد تسللت إلى العالم الإسلامى ، وكان منهم العلماء والأدباء الذين هاجروا إلى الشام ومصر ، ونبغ منهم فى هذا العصر كثيرون وظهر منهم الزمخشرى الذى قام برحلته إلى العراق والحجاز وجاور فى مكة زمناً ، والحافظ السلفى الذى رحل إلى العراق والشام ومصر واستقر بالإسكندرية ، وعماد الدين الأصفهانى الذى جاء إلى الشام ومصر ورافق صلاح الدين ووزيره الكاتب القاضى الفاضل .

وعاش الأقباط فى مصر فى سلام مع العرب منذ الفتح العربى ، وأسلم منهم كثيرون وتعربوا وزاد عدد المسلمين منهم فى هذا العصر وصار منهم شعراء مبرزون وقادة محنكون ورجال دولة ، مثل الخطير مهذب بن مينا وابنه الكاتب الشاعر أسعد ابن مماتى صاحب « الفاشوش فى حكم قراقوش » و « قوانين الدواوين » .

واحتفظ الأقباط بعاداتهم وتقاليدهم ، وأتيح لهم القيام بطقوسهم وعباداتهم فى حرية ، وقاموا بدور فعال فى الإدارة وخاصة فى دواوين الكتابة والخراج . ويقول ستانلى لانبول : « وكأن القبط الذين ولدوا ليصبحوا كتاباً وصيارفة

يقومون بإدارة الدواوين جميعاً . وظلت الكتب الحكومية والوثائق العامة فى مصر تدون باللغة القبطية نصف قرن بعد الفتح » .

وأدخل نظام الملك الوزير السلجوقى نظام المدارس الإسلامية وبنى كثيراً منها فى عواصم العالم العربى والإسلامى الكبرى، وكان من بين أهدافه تدعيم نشر مذهب أهل السنة وحفظ القرآن والحديث إلى جانب العلوم العقلية الأخرى . وكان نظام الملك وملكشاه محبين للعمارة والإنشاءات فبنيت فى عصرهما إلى جانب المدارس كثير من المساجد والمارستانات وتبعهما فى ذلك نور الدين محمود، وصلاح الدين وخلفاؤه ، وبنيت القلاع والمارستانات والمدارس ودور الحديث والربط والخانقاه فى دمشق وحلب والقاهرة والموصل .

ونشطت التجارة بين المشرق العربى والإسلامى والغرب الأوربى بالرغم من الحروب المتصلة ، وكانت التجارة تنتقل من أقصى المشرق ، من الصين والهند وبلاد فارس عبر العراق والجزيرة والشام إلى البحر المتوسط فأوربا ، أو قد تنتقل إلى مصر عن طريق البحر الأحمر ثم إلى النيل فالقاهرة فالإسكندرية أو دمياط فأوربا . وقد أثرى كثير من تجار مصر والشام والعراق نتيجة نشاطهم التجارى . وكان لمصر والشام بموقعهما الممتاز وسط العالم العربى والإسلامى ، وفى سرة العالم القديم ولوقوعهما على البحر المتوسط نشاط ممتاز فى التجارة بين الشرق والغرب ، تلاقت فيهما تجارة أوربا ومصنوعاتها وتحف الشرق ومنتجاته واتصلتا بالبندقية وبيزا وجنوه بروابط وثيقة . وكانت التجارة تخضع لبعض الاحتكارات من الحكام والأمراء فقد احتكروا أصنافاً معينة من البضاعة والغلات .

وقد أدى حكم صلاح الدين إلى الحد من استغلال أصحاب الإقطاع وشجع الزراعة وساعد هو وخلفاؤه على ازدهار التجارة ؛ فتسامحوا مع تجار الإفرنج فى دخول البلاد الإسلامية وتبادل التجارة مع أهلها ، كذلك سمح الإفرنج لتجار العرب والمسلمين بدخول بلادهم . ووقع العادل معاهدة تجارية مع البندقية[1] .

---

(١) مصرف العصور الوسطى ٤٤٩ .

وخفف المكوس على التجارة والوافدين بعد أن كانت باهظة[١]، وذلك بمنشور أصدره سنة ٥٦٧ هـ . ونشطت الصناعة المحلية كصناعة الحرير بالموصل والمصنوعات الزجاجية والحرير الملون بتنيس والإسكندرية ودمياط وكان يصدر منها إلى سائر العالم فى المشرق والمغرب .

وحدثت هزات اقتصادية أدت إلى المجاعات نتيجة الكساد والأوبئة وانخفاض النيل واضطراب أحوال الأمن ، وخوف الناس من المصادرة التى كان يلجأ إليها بعض الحكام والوزراء الجائرين . ولعل أخطر ما حدث بمصر والشام والعراق من غلاء ومجاعة كان سنة ٥٧٤ هـ . قال عز الدين بن الأثير : « وفى سنة ٥٧٤ اشتد الغلاء ، وعم أكثر بلاد العراق ومصر وديار بكر والجزيرة والشام وغير ذلك من البلاد ودام إلى أن انقضت السنة[٢] » . كذلك كانت أشد المجاعات بمصر فتكاً بالسكان فى عهد العادل أيوب واستمرت ثلاث سنوات من ٥٩٦ هـ إلى سنة ٥٩٩ هـ وكان أشدها سنة ٥٧٩ هـ ، وسببها انخفاض النيل ، فانتشر القحط وهرب الناس من مصر إلى الشام وانعدمت الحبوب واشتد البلاء . وكتب عماد الدين الأصبهانى يقول :

« وفى سنة ٥٩٧ اشتد الغلاء وامتد البلاء ، وتحققت المجاعة ، وتفرقت الجماعة ، وهلك القوى ، فكيف الضعيف ، ونحف السمين فكيف العجيف ، وخرج الناس خوف الموت من الديار ، وتفرق فريق مصر فى الأمصار ، ولقد رأيت الأرامل على الرمال ، والجمال باركة تحت الأحمال ، ومراكب الإفرنج واقفة على ساحل البحر على اللحم تشدق الجياع باللحم » .

وازدهرت بالرغم من ذلك العواصم الكبرى بحياة الترف فى قصور السادة وكبار التجار والأثرياء ، وعمت البساتين اليانعة ، وتفنن الناس فى ضروب الملبس والمأكل والمشرب ، وتنافسوا فى التأنق ، وانطبع أهل المدن بالدماثة ومراعاة آداب

---

(١) راجع رحلة ابن جبير ص ٣٨ ط . جب والروضتين ١ / ٢٠٥ .
(٢) الكامل لابن الأثير ٤ فى تلك السنة .

السلوك ، والرقة فى المعاملة والخطاب ، والظرف وحب اللهو والطرب . قال ابن جبير يصف أهل بلاد المشرق من بغداد ودمشق : « ومن عجيب حال الصغير عندهم والكبير بجميع هذه الجهات كلها إنهم يمشون وأيديهم إلى خلف قابضين بالواحدة على الأخرى ، ويركنون للسلام على تلك الحال المشبهة بأحوال الفتاة مهانة واستكانة ، كأنهم قد سيموا تعنتاً وأوثقوا تكتيفاً . وهم يعتقدون تلك الهيئة تمييزاً لهم فى ذوى الخصوصية وتشريفاً[1] » .

ثم يسخر ابن جبير من فرط مجاملتهم وإسرافهم فى التحية بالانحناء والإشارة وهز الرءوس ، كما يعجب من لباسهم الذى يجرونه من وراء « والمحتشم منهم من يسحب ذيله على الأرض شبراً » .

واهتموا بقضاء أوقات الطرب واللهو فى الحدائق يشربون وينعمون بالغناء والموسيقى بين الجوارى الحسان والغلمان الصباح الوجوه . وكان من تلك الأماكن النزهة بدمشق بردى وخان العقيقة بظاهر البلد، قال عنه ابن جبير :

« قد جمع أسباب الملاذ ويجرى فيه الفسق والفجور بما لا يُحدُّ ولا يوصف» . وبالقاهرة بركة الفيل وغيرها .

وراجت تجارة الرقيق من كل نوع ، وكان يشتهر بها فى هذا العصر جماعة من تجار جنوة والبندقية ، يتفننون فى ترويجه ، وكان من عادة الناس اقتناء الجوارى والغلمان دون حرج حتى العلماء منهم والفقهاء .

وعرف الناس إلى جانب الخمر حشيشة الدينار ، وقد نشرها جماعة الحشاشين من أتباع الحسن الصباح ، وهم طائفة من الإسماعيلية ، وأقبل عليها جماعة من الصوفية وفضلوها على الخمر لأنها غير محرمة فى عرفهم فلم ينزل بها نص وهى تساعدهم على سبحاتهم وتهويماتهم فى عوالمهم .

---

(١) رحلة ابن جبير ص ٢٩٦ ط أوربة .

٣ ـ الحياة الفكرية

وقد كان للعوامل السياسية والاجتماعية آثارها البالغة على الحياة الفكرية والأدبية فى هذا الجزء من العالم العربى (مصر والشام والعراق) والظاهرة الجديرة بالانتباه تلك الألوان من العقائد والفرق الدينية التى كثرت كثرة بالغة وكانت نتيجة للاختلاط بين الأجناس والعناصر المختلفة ، وبين أمشاج من العقائد والديانات وبين الإسلام ، فمن سنيين وشيعة ودروز وباطنية وحشيشية ويهود ونصارى ووثنيين وعرب وإفرنج وفرس وروم وأتراك وأكراد ومن بقايا عقائد قديمة لا زالت تعشش وتفرخ كالمانوية والزرادشية والصابئة . وقد أثرت هذه جميعًا فى الفرق والمذاهب المستحدثة والمبتدعة ، والطرق التى تفشت فى الإسلام .

كذلك بدت ظاهرة واضحة فى اهتمام المسلمين بظاهر الإسلام والعبادات والحرص على حفظ الحديث والقرآن والتفسير والاهتمام بالشريعة واحترام العلماء والفقهاء . وغالى الأمراء والسلاطين فى الحرص على هذه المظاهر وبناء المدارس والمساجد ودور القرآن والحديث ، وتقريب العلماء والفقهاء واحترامهم والإغداق عليهم .

وكان صلاح الدين يهتم بإقامة شعائر الدين ، ويحارب الفجور فى أنحاء دولته ويتعصب لمذهب أهل السنة ، ويحارب الملاحدة ، والمتفلسفة ، وقد أمر صلاح الدين بقتل السهروردى صاحب فلسفة الإشراق . وكان النزاع العقدى بين الفرق يبلغ درجة الصراع المسلح وخاصة بين أهل السنة والرافضة والشيعة عامة . وذكر ابن جبير أن بعض المسلمين فى الشام قد ندبوا أنفسهم لحرب هؤلاء الرافضة والشيعة فألفوا بينهم جماعة أطلقوا عليها اسم (النبوية) وهم سنيون

يدينون بالفتوة وأخلاق الرجولة ، وقد سلطهم الله على الرافضة يقتلونهم أينما وجدوهم[١] » .

وبلغ الحقد أقصاه أحياناً لدرجة تسليم البلاد للأعداء تشفياً من أعداء المذهب ، ومثاله ما فعله ابن العلقمى الوزير الشيعى الرافضى الذى خان مولاه الخليفة المستعصم بالله العباسى السنى وسلم بغداد للتتار[٢] .

كذلك كان يجرى بين الحنابلة والأشعرية العجائب من السباب وتكفير بعضهم بعضاً[٣] . وانتشر التصوف فى هذا العصر وتعددت طرقه وظهر فيه جماعة من كبار الصوفية كالسهروردى وابن عربى وابن الفارض ، كما ظهرت طرق الرفاعية والشاذلية وغيرهما . وليس غريباً أن تنتشر الصوفية فى هذا العصر فقد وجدت المجال مناسباً والبيئة صالحة لتنمو وتترعرع . إذ لاشك أنه بسبب ما كان يسود العصر من روح الانصرافية والسلبية بكثرة الاضطراب والمظالم الاجتماعية والهزات الاقتصادية العنيفة وكثرة الحروب ، انصرف الناس إلى التماس الهروب من الحياة بأخطارها وشرورها والتماس حياة أخرى روحية يعيشونها بوجدانهم فى نسك وتعبد فانتحى الخيرون جانباً تقية وورعاً ، وأسلم العاجزون أنفسهم للفقر والضعف عجزاً وقصوراً ، وقبحوا للناس الحياة وملاذها ووصفوها أقبح الوصف وأرذله وخلطوا صفوها بكدر ، ودعوهم إلى الحياة الآخرة والابتعاد عن مآثم الدنيا .

ولا شك أن الحكام شجعوا هذا الاتجاه إما رغبة حقيقية لدى القلة منهم والتماس جانب الدين ، أو رجاء صرف الناس عنهم بإشاعة دعوة التوكل وعدم المطالبة ورفض الدنيا وما فيها .

وقد قال ابن جبير حين زار ربط الصوفية : « وهذه الطائفة الصوفية هم الملوك بهذه البلاد ، لأنهم قد كفاهم الله مؤن الحياة الدنيا وفضولها وفرغ خواطرهم لعبادته

---

(١) رحلة ابن جبير ص ٢٨٠ .
(٢) فوات الوفيات ٢/٣١٣ .
(٣) مرآة الزمان ٨/٤٧٦ .

من الفكرة فى أسباب العيش وأسكنهم فى قصور تذكرهم قصور الجنان[١] » .

ومن علماء الصوفية فى هذا العصر نجم الدين كبرى ، ومجد الدين البغدادى (توفى بين سنة ٦٠٦ و سنة ٦١١ هـ) ونجم الدين الداية (توفى سنة ٦٥٤ هـ) وشهاب الدين السهروردى صاحب التصانيف المشهورة فى التصوف مثل « عوارف المعارف » (توفى سنة ٦٣٢ هـ) وعبد القادر الجيلانى ومحيى الدين بن العربى صاحب كتب « فصوص الحكم » و« الفتوحات المكية » ، وتزيد مؤلفاته على خمسة عشر كتاباً إلى جانب ديوان من الشعر .

وأقبل الناس على معرفة أحوال النجوم وشاع التنجيم وأشار ضياء الدين فى إحدى رسائله إلى المنجمين والتنجيم فى عصره فقال : « ولقد توهم أهل التنجيم بالتسيير والتقويم ، والحكم على العليم الحكيم ، فأخبروا عن النجوم فى سعودها ونحوسها بما لم تخبره عن نفوسها ، وقضوا فى ترتيب أبراجها واختلاف مزاجها ، وحكموا على حوادث العمر فى حال وجوده إلى عدمه ، فى سعادته وشقاوته ، وصحته وسقمه ، وأشباه ذلك من الزخارف التى نصبوها للاكتساب على غير ذوى الألباب ، وكلها أضغاث أحلام ، وأوضاع لا تخرج عن خط الأقلام[٢] » .

وظهرت اتجاهات دهرية ، فوجد أناس يؤمنون بحكم الكواكب فى التدبير ، ونفى البعث ، والاعتقاد « بأن الزمان دور وأن الإنسان نبات أو نور » كما يقول ابن خلكان[٣] .

واهتم العلماء بالفلسفة والعلوم العقلية ، وأقبل كثيرون على علوم اليونان كالرياضة والفلك والطب والعلم الطبيعى ، وكانت بلاد خوارزم مركزاً حيّاً لهذه الدراسات فى هذا العصر ، كذلك وجد فى خراسان مراكز متفرقة ، كما اهتم المغاربة والأندلسيون بها وظهر فى هذا العصر جماعة من أعلام هذه الدراسة مثل عمر

---

(١) رحلة ابن جبير ٢٨٤ .
(٢) الوشى المرقوم لضياء الدين ص ٥٨ .
(٣) وفيات الأعيان ٤/٥٦ فى ترجمة ابن الصائغ .

الخيام والفخر الرازى فى المشرق وابن رشد فى المغرب (توفى سنة ٥٩٥ هـ) وابن الطفيل (توفى سنة ٥٨١ هـ) .

وقرب صلاح الدين وخلفاؤه الفقهاء والمحدثين وأغدقوا عليهم . ويقول أبو شامة : « إن صلاح الدين كان متى سمع عن شيخ ذى رواية عالية وسماع كثير فإن كان ممن يحضر مجلسه أحضره وسمع عليه ، وأسمع من يحضره فى ذلك المكان من أولاده ومماليكه والمختصين به . وكان يأمر الناس بالجلوس عند سماع الحديث إجلالاً له . وإن كان الشيخ ممن لا يطرق أبواب السلاطين ويتجافى عن الحضور فى مجالسهم سعى إليه وسمع عليه . وتردد على الحافظ السلفى بالإسكندرية[1] » .

ومن أعلام فقهاء هذا العصر ابن الجوزى ، وابن الصلاح ، وأبناء السهرورَدى والسرخسى. وقد ألف ابن الجوزى فى كثير من فروع الثقافة الإسلامية ؛ فى القرآن والحديث . والتاريخ واللغة والأدب وقيل إن تصانيفه بلغت ثمانمائة[2] وألف الكاسانى (سنة ٥٨٧ هـ) كتابه المشهور فى الفقه ، والسرخسى كتاب المبسوط ، وابن قدامة (توفى سنة ٦٢٠ هـ) كتابه « المغنى » فى الفقه الحنبلى .

كذلك اهتم العلماء بالسيرة والتاريخ والتراجم ، وبتاريخ البلدان ، ومن أشهر المؤرخين فى هذا العصر ابن الجوزى (المتوفى سنة ٥٩٧ هـ) صاحب كتاب « المنتظم» وابن الساعى صاحب « المختصر » ، وعزالدين بن الأثير صاحب كتاب «الكامل فى التاريخ» وابن النجار صاحب « ذيل تاريخ بغداد »، وابن عساكر صاحب « تاريخ دمشق » ، وعبد اللطيف البغدادى صاحب « تاريخ مصر » وابن شداد صاحب سيرة صلاح الدين المعروفة باسم « النوادر السلطانية » ، وعماد الدين الأصبهانى صاحب كتب : « البرق الشامى » و « الفتح القدسى » ، وياقوت الحموى صاحب « معجم الأدباء» ، وابن خلكان صاحب «وفيات الأعيان» ، وكمال الدين بن الأنبارى صاحب «طبقات النحويين» ، والقفطى صاحب : «إنباه

---

(١) كتاب الروضتين ٢/٢١٩ .
(٢) مرآة الزمان ٨/٨٩؛ .

الرواة فى أخبار اللغويين والنحاة»، وابن أبى أصيبعة (توفى سنة ٦٦٨ هـ) صاحب «معجم الأطباء» .

كذلك ازدهرت الدراسات اللغوية على أيدى جماعة من كبار العلماء الذين خلدت كتبهم ولا تزال تدرس ويتناولها العلماء فى كل عصر بالشرح والتعليق والتعليم مثل الزمخشرى (المتوفى سنة ٥٣٨ هـ) صاحب المفصل ، وابن خروف (توفى سنة ٦٠٦ هـ) وابن الخشاب ، وابن الشجرى ، والجواليقى ، والبكرى (المتوفى سنة ٦١٦ هـ) .

واهتم علماء اللغة فى هذا العصر بشرح الكتب الكبرى والتعليق عليها ، فقد شرح الجواليقى مقدمة أدب الكاتب لابن قتيبة ، وشرح ابن الشجرى كتاب اللمع لابن جنى ، ودرس على بن محمد الفصيحى كتاب « الفصيح » لثعلب ودرسه بنظامية بغداد ونسب إليه . وشرح ابن الخشاب (المتوفى سنة ٥٦٧ هـ) كتاب « الجمل » لعبد القاهر الجرجانى وسماه « المرتجل فى شرح الجمل » .

٤ ـ الأدب والأدباء

وصف جب هذا العصر بأنه العصر الفضى للأدب إذا صح أن نطلق على العصر السابق العصر الذهبى ، ونعته بأنه لم يتميز بالإبداع والعبقرية قدر امتيازه بالبراعة والصنعة أو المهارة الفنية التى غلبت إلى حد كبير على العبقرية والابتكار[1] .

ويمكن أن يكون هذا الوصف صحيحاً إلى حد كبير فقد غلبت الصنعة على أدب هذا العصر ، ولكنه مع ذلك لم يخل من الابتكار . وغلب عليه طابع التسلية فكان فى كثير من جوانبه وموضوعاته أدب تسلية وقطع للوقت فيه قدر كبير من اللعب باللفظ والمعنى والمهارة فى التعمية واللغز بقصد السمر والدعابة .

وكان على الأديب شاعراً وناثراً أن يكون فطناً ملماً بالكثير من فروع المعرفة

---

(١) Gibb: Arabic Litevature P.82

بارعًا قديراً على اللعب بالألفاظ والمعانى ، وإلا كان أديبًا كاسد السوق غير مقرب لدى الرؤساء ولا مختاراً فى مجالسهم وأسمارهم .

ومن خصائص هذا الأدب فى الكتابة وخاصة فى الرسائل كثرة ألفاظ المديح والإطراء ، والافتتاحيات الطويلة المليئة بمعانى الخضوع والذلة وقد أشاعت مقامات الحريرى بما فيها من ضروب اللعب بالألفاظ والمعانى صنوفًا من الحلى الأسلوبية التى أغرم بها الكتاب والشعراء كثيراً فاستغلت أصوات الحروف استغلالاً كثيراً ، فى محاولة التوفيق بينها وترديدها بصورة أو أخرى . ومالوا فى الشعر إلى الأوزان الخفيفة الراقصة وتوليد الأوزان الجديدة .

وأملى كثيراً من هذه الاتجاهات ذوق العصر والترف المادى والذهنى الذى بلغه المجتمع العربى فى أخريات القرن الخامس الهجرى . وربما ابتعدوا فى ذلك كثيراً عن الأنماط القديمة فى الأدب والشعر خاصة ، فقد ابتعد الشعراء عن عموده التقليدى فى أسلوبه وموضوعاته . ونفروا من روح البداوة والخشونة وابتعدوا عن استخدام اللفظ الوعر والغريب ومالوا إلى استعمال الألفاظ الرقيقة والمولدة .

وزاد على الموضوعات التقليدية فى الأدب موضوعات أملتها ظروف العصر وقد تأثر بطبيعة الحال بالحروب الكثيرة وخاصة الحروب الصليبية . فكثر القول فى الجهاد ، والجيوش وآلاتها ، ووصف الحصون والقلاع وإبراز فضائل الشجاعة والنخوة وتمجيد الدفاع عن الأوطان ، والتحريض على حبها والإشادة بها وبمكانتها فى النفوس . قال القاضى الفاضل يصف حصن الكرك الذى كان صاحبه الصليبى يقطع منه الطريق على حجاج بيت الله الحرام من الشام إلى أن أخذه صلاح الدين . قال القاضى :

« هو شجىٌ فى الحناجِرْ ، وقذى فى المحَاجِرْ ، قد أَخَذَ من الآمالِ بمُخْنِقها ، وقعَد بأَرصادِ العزائم وطُرقِها ، وصَار رئيساً للدَّهرِ فى ذلك

الفَجِّ ، وعذْرًا لتاركِ فَريضةِ الله من الحَجِّ ،وهو وحِصْنُ الشُّوبَكِ يَسَّرَ الله الآخر – كبيت الواصف للأسدين !

ما مَرَّ يومٌ إلاَّ وعِندهُما لحمُ رِجالٍ أو يولغَانِ دَمَا »

وألفت الكتب فى فنون الحرب والقتال وآلاته ، مثل كتاب لابن صابر المنجنيقى « عمدة السالك فى سياسة الممالك » . قال ابن خلكان « ولم يتمه وهو مليح فى معناه ، يتضمن أحوال الحروب وتعبئتها ، وفتح الثغور وبناء الثغور ، وبناء المعاقل ، وأحوال الفروسية والهندسة ، والمصابرة على الحصار ، والقلاع ، والرياضة الميدانية ، والحيل الحربية ، وفنون العلاج بالسلاح ، وعمل أداة الحروب والكفاح ، وصنوف الخيل وصفتها[1] » .

وألف ابن عساكر الدمشقى (المتوفى سنة ٥٧١ هـ) كتابًا فى الجهاد سماه « كتاب الأربعين فى الجهاد » ، وجمع القاضى ابن شداد لصلاح الدين كتابًا فى الحرب يشتمل على فضائل الجهاد ، وما أعدالله سبحانه وتعالى للمجاهدين[2] » .

واهتم الأدباء بالتاريخ للعصر ومعارك صلاح الدين والمسلمين ضد الصليبين ، وقد ألف عماد الدين الأصفهانى كتابيه « البرق الشامى » و « الفتح القدسى » فى ذلك والأخير فى فتح بيت المقدس . ولكن كتابته كانت كغالبية أهل عصره مغرقة فى البديع ، مسرفة فى السجع حتى قال عنه بروكلمان « ومن أسف أنه أثقل كتابه هذا بالمحسنات اللفظية التى توقع فى نفس القارئ أن الجانب اللغوى كان أهم عند المؤلف من الموضوع نفسه[3] .

قال فى وصف معركة حطين الفاصلة ! « فاغتنمْنا الحرَّ فى اللقاء ، وَهجْنا إلى الهيجاء ، وأسرعَت الأَعِنَّةُ ، وأُشرِعَتِ الأَسِنَّةُ ، ونقع النَّقْعُ

---

(١) وفيات الأعيان ٦/٣٦ .
(٢) معجم الأدباء لياقوت ٥/١٤١ .
(٣) تاريخ الشعوب الإسلامية مترجم ٢/٢٣٢ .

أُوَامَ الجوِّ ، وأجابَ الصَّدَى دَوِيَّ الدَّوِّ ، وجَالَ الجَاليشُ ، وطارَ السَّهْمُ المُرِيشُ ، وعَصَفتْ رياحُ السَّوابِقِ ، واسْتَعْبَرتْ عُيونُ البوارق ولقِيناهم فى عَرْمَرمٍ عَارِمٍ ومجرٍّ جَارِمٍ ، وعوامِلَ جوازِمْ ، وصَواهِلَ صلادِمْ وضراغِمَ ضوار ، وَجَوارِحَ جوارٍ ، وأسودٍ قد اعْتقَلتْ أَسَاوِدْ ، وحيادٍ قد حملَتْ أجاودْ ، وسَوابَحَ قد أَقَلَّتْ بُحورا ، وصقور قد ركبتْ صُقُورَا[1] »

على أن بعض المؤلفين ابتعد عن مثل أسلوب العماد ، فكتب بأسلوب جيد مرسل ، كما فعل ابن شداد وعز الدين بن الأثير ، وبلغت بعض كتابات هذين العالمين حدًّا من الروعة الفنية ترتفع إلى مستوى ما يصور من الأحداث .

وسجل أدب العصر معالم الحياة والمجتمع ، فكتب عن الاضطراب الاجتماعى ووصف تغلب أحوال الناس بين علو وانخفاض ، كذلك سجل الأدب النكبات والمجاعات .

ولم يُغْفِلْ كذلك تصوير الجانب الضاحك من الحياة ، كما صور الجانب المظلم القاتم . واقتحم الميدان إلى موضوعات جديدة غير معهودة من قبل : مثل وصف الحمَّامات العامة ، ووصف أحوال الموظفين ، ورجال المكوس أو كتاب الدواوين ، والسخرية بهم ، والتعرض لوصف المدن والأقاليم بالمدح أو الذم ، فألفت كتب فى فضائل الشام ودمشق ، والقاهرة والإسكندرية . وربما قامت بين الكتاب والشعراء مناظرات ، أو مناقصات حول البلدان كل ينتصر لبلده ويهْجُو بلد صاحبه . ومما يذكر بهذا السبيل القاضى الفاضل فى تفضيل مصر والقاهرة وذم الشام ودمشق ، ورد العماد عليه فى ذكر فضائل الشام . وذكر أبو شامة أن شيخه على بن محمد السخاوى ألف مقامة تشتمل على المفاخرة بين دمشق ومصر ، ووصف كلاً من البلدين بما يليق به[2] » .

---

(١) الفتح القدسى ص ١٦٧ .
(٢) كتاب الروضتين ٢/٥٩ .

وتناولوا وصف أنهار النيل ودجلة والفرات ، وبردى . ولضياء الدين رسالة فى وصف النيل ، وللقاضى الفاضل رسالة فى النيل نقل بعضها ابن حجة الحموى فى « ثمرات الأوراق[1] » .

وقويت الخطابة وازدهرت الدينية منها خاصة ، وتناولت شتى الموضوعات التى تعرض لأمور الدين ، ومن أشهر ما نعرفه خطب ابن الجوزى ومواعظه فى بغداد ، ونقل أبو شامة وغيره من مؤرخى العصر خطبة ابن الزكى المطولة فى فتح بيت المقدس ألقاها فى الجمعة التالى للفتح أمام صلاح الدين . وكان الخطباء يعمدون إلى الأسلوب المسجع والاقتباس من القرآن الكريم والأحاديث النبوية والشعر العربى القديم وتضمين كلامهم كثيراً منها . واتخذوا من مجموعة خطب ابن نباته نموذجاً يحتذونه .

وتناولت الرسائل كثيراً من موضوعات الشعر كالإخوانيات والتهانى والمداعبات والغزل والاشتياق بالإضافة إلى الرسائل الديوانية المتعلقة بشئون الدولة وأمور السلطان .

ودخل فن الكتابة القصص والأخبار والأمثال ، واهتموا بإيراد فنون التضمين والاستعارات والكنايات والتورية .

وتناول الناس فن المقامة الذى نشأ على يد بديع الزمان وتطور على يد الحريرى فجالوا فيه فى كل فج وتناولوا به شتى الموضوعات ، واستغلوا فيه فن القصة القصيرة إلى فن كتابة الرسالة وأسلوبها .

كذلك اتجه الناس إلى القصة وخاصة فى المجال الشعبى ، ووجد فن اليوميات وكتابة المذكرات كما هو الحال فى كتاب « الاعتبار » لأسامة بن منقذ ، وهو صورة مشوقة لحياته وعصره وعلاقاته المتعددة ومغامراته فى مصر والشام مع أهله ومع الفرنجة .

---

(١) ثمرات الأوراق ص ١٣٢ .

كذلك نجد فن كتابة الرحلات على يد بعض الكتاب المشهورين مثل ابن جبير وعبد اللطيف البغدادى .

وانقسم الشعر إلى مذاهب شتى من حيث أسلوبه وموضوعاته ، وكان الغالب على شعراء العصر اتجاه البديع والإسراف فيه ، ومنهم ابن القيسرانى وابن منير الطرابلسى وتوفيا سنة ٥٤٨ هـ . وكانا شاعرى الشام فى وقتهما ، خلدا كثيراً من حروب نور الدين محمود ، ونظما فيه المديح ، ومنهم عرقلة الدمشقى (توفى سنة ٥٦٧ هـ) وابن عنين ، وابن الساعاتى ، وابن مماتى ، وابن سناء الملك . .

وكان بعض الشعراء أميل إلى التقليد والاعتماد على مجاراة القدماء كالأبيوردى ، وابن عنين ، وعمارة اليمنى . وحيص بيص (توفى سنة ٥٧٤ هـ) ، وابن التعاويذى (توفى سنة ٥٨٤ هـ) . وكان الأبيوردى بدوى الأسلوب والمعانى ويكثر من تقليد المتنبى فى الفخر وذم الزمان ، وكذلك كان ابن مقرب الأحسائى شاعراً بدوى النشأة والروح . يأمل فى عودة العرب إلى السلطة ، ويفخر بعروبته ، ويذم الدهر لأنه قدم الخدم على السادة ، ويدعو إلى امتشاق الحسام للنضال حتى يسترد العرب مكانتهم فيقول مفتخراً :

وأنتَ من الفرع الذى فخرت به ... نزارٌ وسارت فى معدٍّ مناقِبُهْ
سما بِكَ بَيْتٌ عَبدَلىٌّ أحلَّهُ ... دَيارَ الأعادى سمرُه وقواضِبُهْ
وعالى مَحلٍّ فى ربيعةَ أشرفتْ ... عُلُوًّا على كل المعالى مَراتِبُهْ

ويقول فى ذم الدهر :

وقائِلةٍ هوِّنْ عليك فإنهـا ... متاعٌ قليلٌ والسَّلامة فى الزُّهْدِ
فإن عَلَت الروسَ الذبابُ بسكرة ... من الدهرِ فاصْبِرْ فهوسُكرٌ إلى حَدِّ
وقدْ تملكُ الأُنثى وقد يُلْثَمُ الحصَى ... ويُتَّبعُ الأغوى ويُسْجَدُ للقِرْدِ
ويعلو على البحر الغثاءُ وتلتقى ... على الدرِّ أمواجٌ تزيد على العدِّ

وظهرت أنواع متعددة من الشعر فى صورة مخالفة لصورة القصيدة العربية التقليدية ، وانتقل نظام الرباعية أو الدوبيت إلى الشعر العربى ونظم فيه كثير من شعراء العصر كصلاح الدين الأربلى (توفى سنة ٦٣١ هـ)[١] ، قال ابن خلكان : « وله نظم حسن ودوبيت رائع ، وبه تقدم عند الملوك » . ووفد إلى المشرق فن الموشحات فنظم فيه ابن سناء الملك (توفى سنة ٦٠٨ هـ) ديوانًا سماه « دار الطراز » ، ويقال إن أول من مكن لها فى الشرق ابن عربى الشاعر الصوفى .

وتعددت ضروب الشعر الشعبى من « الزجل » إلى « الكان وكان » و « القوما » و « المواليا » . وقد عرف به فى مصر فى هذا العصر ابن القماح ، وفى الشام ابن مقاتل ، وفى العراق ابن جابر البغدادى . فأما « الكان وكان » فهو نظم كثيراً ما كان يستخدم للقص والحكايات الخرافية ، واستغله ابن الجوزى (توفى سنة ٥٩٧ هـ) وشمس الدين الكوفى فى نظم المواعظ والحكم[٢] . وكان يسمى هذا الفن فى مصر « بالزكالش » قال على ابن ظافر : « وأخبرنى بعض أصحابنا المصريين أن بعض جلساء الصالح بن رزيك أنشد بمجلسه بيتًا من الأوزان التى يسميها المصريون الزكالش ويسميها العراقيون « الكان وكان » . ونظم فيه من العراقيين أبو منصور بن نقطة المسحَّر (توفى سنة ٥٩٧ هـ) والحاجرى (توفى سنة ٦٣٢ هـ) .

ويذكر صاحب تاريخ الموصل أن « المواليا » استحدثه الواسطيون وكان يجرى على ألسنة العامة خاصة فى شهر رمضان[٣] .

و « القوْما » سمى بهذا الاسم لقولهم « قوْما للسَّحر قوْما » ونظموا فيه الزهدى والخمرى والعتاب[٤] .

---

(١) وفيات الأعيان ١ / ١٦٧ .
(٢) تاريخ الموصل ٨٢ .
(٣) الأدب فى عصر صلاح الدين ص ٣٢٥ .
(٤) تاريخ الموصل ص ٨٢ .